آفاق العلوم الإنسانية والاجتماعية في ظل تطور التقنية في القرن الحادي والعشرين

الدكتور زروخي الدراجي جامعة المسيلة
dzerrrokhi@yahoo.fr

العلوم الإنسانية و الاجتماعية هي تلك العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان من حيث هو كائن عاطفي يتأثر بالآخرين و يؤثر فيهم ، وكانت الغاية الأولى من تأسيس العلوم الإنسانية و الاجتماعية دراسة السلوك البشري سواء كان هذا السلوك نفسي أو اجتماعي أو سياسي ، لكن التطور العلمي خلق معه مشكلات فلسفية عميقة من أمثلتها قيمة الإنسان بعد تطور التقنية، و كذا جوهر الإنسان بعد ظهور البحث البيولوجي الموسوم بالاستنساخ البشري هذا البحث الذي يجبرنا اليوم إلى ضرورة إعادة النظر في قيمة بعض الأبحاث العلمية و الانتباه إلى خطورتها، و من هنا كان لزاما على العلوم الإنسانية أن تعيد هيكلة نفسها و مسايرة التطور العلمي ، و من ثم تبني مهام جديدة في ظل التطور التقني و قبل أن نعرج إلى مهام العلوم الإنسانية و الاجتماعية التي فرضها التطور التقني لابد علينا من التعريف بالمهام الكلاسيكية التي تبنتها هذه العلوم ،

أولا. مهام العلوم الإنسانية و الاجتماعية :

رغم أن المناهج في العلوم الإنسانية و الاجتماعية لم تبلغ الدقة العلمية المطلوبة إلا العلوم الإنسانية و الاجتماعية ذات مهام لا يمكن تجاهلها أو التخلي عنها و من أهمها :

1. التنظيم الاجتماعي (organisation Social) :

لا تستقيم حياة المجتمع إلا في وجود نظام اجتماعي متكامل، لأن غياب التنظيم يؤدي إلى تبيد طاقة الأفراد دون فائدة ، و يشير مصطلح التنظيم الاجتماعي بصفة عامة إلى >> كل الأساليب و الطرق التي تضفي طابعا نظاميا على سلوك الإنساني <<¹.

و بين المفكر الإنجليزي المعاصر بارنز (Barnes) أن التنظيم الاجتماعي يتمثل في الجهود التي يبذلها الإنسان من أجل تحقيق أهداف وغايات تلي له حاجاته الضرورية ، و في الوقت نفسه يعني التنظيم الاجتماعي الجماعات و الأبنية الاجتماعية التي تنشأ نتيجة لهذه الجهود ، يقول بارنز >> نعني بالتنظيم الاجتماعي كل من مجهودات الرجال لتحقيق بعض الأهداف عادة، وإرضاء الاحتياجات الإنسانية الحيوية و المجموعة الاجتماعية و الهياكل التي تنتج عن مثل هذه المجهودات <<².

و للتنظيم الاجتماعي غايات معلومة تتمثل في:

.التدعيم الذاتي المستمر للتنظيم من قبل الأفراد.

.تقسيم العمل و توزيع المناصب وفقا للكفاءات.

.تنظيم الاتصال بين أفراد المجتمع.

.تنظيم النشاط الاجتماعي و إعداد البرامج المختلفة له.

— إقامة تنظيم بحيث يسمح هذا التنظيم للأفراد بأن يعبروا عن عواطفهم و اتجاهاتهم بكل حرية³.

إذن يعمل التنظيم الاجتماعي على خلق الوحدة بين الأفراد ، و خلق أواسر التعاون و الصلة بينهم ، و تقسيم العمل تقسيما يتيح للفرد تادية وظيفته وفق انسجام تام مع باقي أفراد المجتمع ، وهذا ما يؤدي إلى زيادة قوة الإنتاج و رغبة الفرد في العمل و الالتحام مع الآخرين.

2. التنشئة الاجتماعية:

يقصد بالتنشئة الاجتماعية عملية صقل الأفراد و تكوين مواطن صالح ، و هذه إحدى مهام العلوم الإنسانية و الاجتماعية⁴. إذ أن المجتمعات اليوم تعاني من انسلاخ بعض الأفراد وانحرافهم عن عادات المجتمع بشكل سلبي ، مما أدى إلى ظهور مشاكل اجتماعية تسببت في انحلال الأسرة و المجتمع ، و من هنا أخذ المختصون في دراسة الظواهر الإنسانية و الاجتماعية على عاتقهم إصلاح أحوال الأفراد ، و إعدادهم ليكونوا أفرادا فاعلين داخل مجتمعاتهم فالتنشئة الاجتماعية هي عملية ينتقل من خلالها الكائن البشري من مجرد كائن بيولوجي

حيوي إلى كائن اجتماعي ، يتفاعل و يتكيف إيجابا مع الآخرين و يمتص الفرد من خلال هذه العملية مبادئ ومعارف و لغة و ثقافة مجتمعة و يكتسب الإنسان بذلك إنسانيته.

والتنشئة الاجتماعية في الحقيقة عملية لا يقوم بها الباحث أو العالم المتخصص لوحده وإنما تتفاعل فيها كل الفعاليات من أسرة و محيط و مؤسسات تربوية واقتصادية على أن العلماء هم الموجه الفعلي لهذه العملية. و من أهداف عملية التنشئة الاجتماعية خلق الانسجام بين الفرد و بيئته الاجتماعية ليكون عضوا مقبولا و فعالا داخل الجماعة فيكسب بذلك اعتراف و احترام المجتمع ، و على هذا النحو يحدث اتحاد و التّحام بين الأفراد فيزول الاغتراب و العزلة لدى الفرد وتختفي الجريمة و يغيب الانحراف و يصبح البناء الاجتماعي أكثر قوة و صلابة.

3. تحليل أنساق التفاعل الضيق النطاق:

إن مهمة العلوم الإنسانية و الاجتماعية لا تقتصر على البحث عن آليات الاتساق و الانسجام بين أفراد المجتمع أو الأسرة ، بل تتعدى ذلك إلى دراسة مظاهر الانحراف، فلا يمكن فهم حقيقة الأسرة الناجحة إلا من خلال دراسة أسباب الطلاق، و لا يتأتى للباحث فهم الوحدة و التضامن إلا من خلال دراسته للصراع ، و لا يمكن دراسة قوة الإنتاج دون التطرق إلى الضغوطات التي يتعرض لها العامل فتسبب انهياره و قلة مردوديته⁴.

بناء على ما سبق يتّضح أن الطلاق ، الصراع ، التمرد ، كلها أنساق ضيقة النطاق لكن رغم ذلك فإنها تشكل اهتماما لدى علماء الإنسان.

وبين جون ريكس (John Rix) أن الكثير من الدراسات الخاصة بالاستقرار في الحياة الزوجية قامت على أساس دراسات أخرى تناولت التكيف فيما بعد الطلاق ، و بالمثل نجد في ميدان علم الاجتماع الصناعي ، فإنه قبل أن يبحث أساليب قوة الصناعة يدرس قبلا السر في انهيارها و ضعفها⁵.

وباستطاعتنا أن نتوقع بعد هذا ميل الباحثين في الظواهر الإنسانية و الاجتماعية إلى دراسة أنساق التفاعل الضيقة النطاق ، و ذلك بعد عزلها و

تجربتها عن السياق الإنساني والاجتماعي الكلي و دراستها في حد ذاتها كمواضيع مستقلة.

إذن مختلف النظم الإنسانية والاجتماعية التي تتولى العلوم الإنسانية و الاجتماعية تأسيسها ، لا يمكن تحقيقها إلا بعد دراسة بعض الحالات الشاذة داخل المجتمع و التي تكون السبب الرئيسي في انهيار الفرد و المجتمع.

4. دراسة الصراع الاجتماعي:

قليل من المجتمعات التي تعرف الوحدة التامة بعيدا عن التضارب و الصراع ، و لما كان الصراع يسود الكثير من المجتمعات كان على المختصين في دراسة الظواهر الإنسانية و الاجتماعية أن يهتموا بدراسة الصراع الطبقي داخل المجتمع ، و القضاء عليه أو توجيهه توجيها يفيد المجتمع ، وأثناء دراسة الصراع الطبقي يتعين على الباحث أن ينظر إلى النظم الاجتماعية على أنها متغيرة و غير ثابتة ، و بدلا من أن يدرس السوسيولوجي مصطلح النظم عليه أن يدرس المجالات التي تظهر منها مشكلات التفاعل الاجتماعي ، و الصراع الطبقي في الحقيقة ناتج من غياب القيم و محاولة بعض الطبقات الاجتماعية الاستيلاء على الثروة و السلطة و توجيهها لصالحها ، و قد يفضي هذا الصراع إلى غياب النظام و زوال الأخلاق ، و ليس على السوسيولوجي تخليص المجتمع من هذا الصراع في كل الأحوال و إنما تحويله في بعض المرات إلى تنافس بحيث يؤدي هذا التنافس إلى الزيادة في قوة المجتمع⁸. فالطبقة الحاكمة مثلا تسعى لإثبات قوتها في التسيير و خدمة المجتمع وذلك لإقناع باقي الفئات بقدرتها ، و من جهة ثانية فإن الطبقات المتبقية ستعمل جاهدة على خلق آليات تصل بها إلى السلطة و تثبت بها جدارتها.

إن الصراع الطبقي بما يحمله من توتر و بما يحتويه من جانب سلبي و إيجابي يشكل في الحقيقة أحد اهتمامات العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، لكن يجب مراعاة أهمية القيم في هذا الصراع ، لأن غياب القيم يجعل من هذا الصراع وسيلة لتآكل المجتمع وانفصال أفرادده و تفكك وحدته.

5 — تعمل العلوم الإنسانية على تهذيب التأمل الذاتي ، وفتح نافذة ليطل بها الإنسان على عالمه الداخلي ليفقه ما يجري في كيانه فقها يسمح له بتوجيه سلوكه توجيها قاصدا سليما ، كما توسع العلوم الإنسانية والاجتماعية من دائرة معارفنا بالإنسان إلى حد معرفة أحوال الماضين من الناس في حياتهم المدنية والسياسية والأخلاقية وأساليبهم في الإنتاج والتجارة والحروب ، وأسباب نهضتهم وانحطاطهم ، وتبقى العلوم الإنسانية على هذا النحو مصدر العبر والدروس ، التي تتعلم منها البشرية كيفية تجاوز أخطائها⁶.

وعلى هذا النحو فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي منبع ومشرّب الهويات ، ومن خلالها يميّز الإنسان ذاته عن غيره ، واقصد هنا الذات كهوية و تراث ، و يتّضح أن العلوم الإنسانية تتخطى بأهدافها حدود الزمان والمكان كما تنصرف في كثير من الأحيان عن الماديات إلى المعنويات.

هذه بعض المهام التي تتولاها العلوم الإنسانية والاجتماعية ، و في الحقيقة إن إحصاء مهام العلوم الإنسانية والاجتماعية مهمة صعبة و تكاد تكون غير منتهية ، وهذه الوظائف تحتاج إلى جيل من العلماء ، مما يجعل الدقة العلمية غائبة ، كما يجعل الإحاطة بكل هذه المهام أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا. لذا فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية ستؤدي مهامها بعيدا عن الدقة العلمية المرجوة فإن كانت الدقة العلمية هي المطلب الأساسي للبحث الاجتماعي فإنه قد يكون من الأفضل - حينئذ - أن نترك العلوم الإنسانية والاجتماعية لعلماء الرياضيات أو علماء الفيزياء ، وإذا تمسكنا بالمنهج المتبع في دراسة القضايا الرياضية أو الفيزيائية فعلينا إذن أن نعتبر الظاهرة الإنسانية مجرد ظاهرة طبيعية خالية من الروح و نجردها بذلك من ماهيتها الأصلية.

و تحقيق أهداف العلوم الإنسانية والاجتماعية يحتاج إلى مرونة خاصة في استخدام المناهج كما يحتاج إلى قدرات عالية للتفنّن في تطبيق هذه المناهج والتساؤل المطروح هنا: هل يجب أن تكتفي العلوم الإنسانية والاجتماعية بمهام ثابتة؟ أم أن عليها مساهمة التطور التكنولوجي المشهود في العلوم الطبيعية؟

ثانيا. التقنية وأزمة القيم في القرن العشرين :

أفرز التطور العلمي و التكنولوجي العديد من الآثار السلبية على حياة الإنسان وكثير من الأبحاث العلمية حادت عن غاية العلم ، ألا وهي ترقية حياة الإنسان وتسهيل سبل الحياة وهذا ما استدعى تنشيط فلسفة القيم ، وفلسفة القيم >> هي البحث عن الموجود من حيث هو مرغوب فيه لذاته ، وهي تنظر في قيم الأشياء وتحللها وتبين أنواعها وأصولها ، فإن فسرت القيم بنسبتها إلى الصور الغائية المرتسمة على صفحات الذهن كان تفسيرها مثاليا ، وإن فسرت بأسباب طبيعية أو نفسية أو اجتماعية كان تفسيرها وجوديا >>⁷. فلسفة القيم على هذا النحو ترمي إلى تحرير الفرد من العيى الثقيل الذي يرهق وجوده من جراء ازدهار العلوم الطبيعية و السمو به إلى غايات نبيلة و السعي به إلى طلب الحقيقة لذاتها و لخدمة الإنسان ، فلا يجب أن تتطور أبحاثنا على حساب القيم (Valeurs) الروحية . وهذا ما نصح به العديد من الفلاسفة ومن بينهم برغسون إذ أكد هذا الأخير على ضرورة التلازم بين الإبعاد الروحية و الاكتشافات العلمية للحفاظ على قيمة الإنسان ، وهذه القيمة — و لا ريب . مستمدة من البعد الروحي للإنسان و لا يجب أن تؤدي بنا الأبحاث العلمية إلى الإيمان بغير هذا⁸.

ومرة أخرى يظهر الانفصام بين العلم والفلسفة، لأن العلوم الإنسانية و الاجتماعية لم تسائر فلسفة القيم وتصرف مسار بحثها إلى معالجة العديد من القضايا الهامة التي أصبحت مصيرية بالنسبة للإنسان ، وعلى العلوم الإنسانية و الاجتماعية أن تتخلى عن فكرة المهام الثابتة . بل يجب أن تكون لها أهداف متغيرة بحسب آفاق التطور العلمي والتكنولوجي في محاولة لرد الاعتبار لقيمة الإنسان التي اهتزت بفعل معترك العلوم الطبيعية ، هذه الأخيرة أصبحت بعض بحوثها توجه في غير مصلحة الإنسان ، وهذا ما أثر على قيمة العلوم الإنسانية والاجتماعية و أخرجها من واجهة الصراع و الاهتمام الإنساني ، ويمكن القول هنا أن العلوم الإنسانية لا يجب أن تتبنى بعض الأبحاث العلمية بل يجب أن تقف في طريقها وتوجهها و إن استلزم الأمر توقف حركتها ، وسأذكر بعض النماذج التي أود أن أبين من خلالها الآثار السلبية للتطور العلمي و التكنولوجي على قيمة

الإنسان ، والتي تولت فلسفة القيم الاهتمام بها و لم تبال بها العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، إذ انصرفت العلوم الإنسانية إلى دراسة السلوك البشري و حاولت أن تستفيد من التطور الذي شهدته العلوم الطبيعية في مناهجها ، و كان الأولى بها إعادة النظر في مهامها حتى تحمي القيم الإنسانية من التطور التقني الفاحش ، لكنها تجاهلت تلاعب بعض الاكتشافات العلمية بقيمة الإنسان ، و من بين الأبحاث العلمية التي غيّرت ليس فقط القيم وإنما غيّرت مفهوم الإنسان في حد ذاته ، البحث العلمي الموسوم بالاستنساخ ، و يضاف إليه التطور التقني (Technique) الذي جعل الآلة بديلا للإنسان .

1. الاستنساخ البشري (Clonage) :

الحديث عن الاستنساخ البشري ، حديث عن قمة التطور العلمي الذي بلغه علم الوراثة من جهة ، و حديث عن قدرة الإنسان على تغيير سنن الكون >> فبدل أن تقابل الخلايا الجنسية بين ذكور النوع وإناثه ، لتؤدي إلى إنتاج ذرية جديدة ، يمكن أن تنشأ الذرية من خلايا المخلوق الجسدية لا الجنسية >>⁹. لكن ما هي الغاية المرجوة من مثل هذه الأبحاث العلمية ؟ وهل هي في صالح الإنسان ؟ و من يجب أن يطرح مثل هذه التساؤلات هل هم رجال الدين أم الفلاسفة و علماء البيولوجيا أم الباحثون في الظواهر الإنسانية و الاجتماعية ؟ لم يتوار الفلاسفة في التصدي لمثل هذه الأبحاث العلمية - كما بينا ذلك من خلال عرضنا لفلسفة القيم - كما أن رجال الدين في كل مرة يقفون ضد هذه الأبحاث بكل ضراوة ، لأنها في اعتقادهم تغيّر لسنن الكون ، و علماء البيولوجيا منبهرون بأبحاثهم هذه و لا يمكنهم التخلي عنها - حتى و إن كان هناك خلاف بينهم¹⁰ - لكن أين علماء الظواهر الإنسانية و الاجتماعية من هذا كله ؟ و هل علم الاستنساخ على صلة بميدان بحثهم ؟ هذه هي الآفاق الجديدة التي أرى أن العلوم الإنسانية و الاجتماعية ملزمة بالخوض فيها ذلك أن الاستنساخ البشري أصبح يغيّر من مفهوم الإنسان و ألغى فيه الجوانب الروحية ، و أصبح علماء الوراثة يتفتنون في نسخ الذرية الجديدة وفقا لمعايير الجمال التي يريدونها ، و بعد أن كان العقل هو

الفصل النوعي في مفهوم الإنسان أصبح الجسد في علم الوراثة هو الفصل النوعي .

إننا في علم الاستنساخ لم نعد نعلم إلى من تؤول ملكية جسدنا ، وما مصدرنا و أصلنا وفي هذا مبلغ الخطورة على الفرد و المجتمع ، لأننا وفق هذا قد نلغي وجود الأسرة و العائلة ، و كما نعلم فإن العلوم الإنسانية و الاجتماعية في دراستها للسلوك البشري تنطلق من هذه المعالم . >> إن الاستنساخ الحيوي يمكن أن يؤدي إلى القضاء على مفهوم الوالدية ، فنحن في ظل تطور كهذا لا نعود بحاجة إلى وجود الأب أو الأم بقدر ما نحن بحاجة إلى مؤسسة كبيرة تقوم برعاية النسخ التي يتم إنمائها صناعيا في أجهزة خاصة وليس المتصور أن مثل هذه النسخ ستحتاج إلى أن تنشأ في وسط عائلي بالمعنى المفهوم حاليا ، مما يعني أننا سنقضي على معنى الوالدية وبالتالي على معنى العائلة >>¹¹ .

لقد تعدى الأمر إلى أكثر من هذا لأن الشركات العالمية أصبحت تتنافس لامتلاك الجينوم البشري و التحكم فيه و المتاجرة به ، و كأن الهندسة الوراثية حوّلت الجينات البشرية إلى بضاعة مادية ، وخير دليل على هذا سيطرة الشركة الأمريكية المعروفة باسم (Celera Genomics) على سوق الجينوم ، وهذه الشركة تأسست في ماي 1998 في حين قد يكون >> إنشاء احتكار على الاستخدامات التجارية لمتواليات الجينوم البشرية في مصلحة شركة Celera من الناحية التجارية ، فلن يكون ذلك في مصلحة العلم أو عامة الجمهور >>

¹²

إن حقائق كهذه تتطلب من المختصين في العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، ليس فقط الدفاع عن الإنسان إزاء هذه النشاطات ، وإنما خلق فروع جديدة للعلوم الإنسانية و الاجتماعية تقف في وجه التطبيقات العلمية التي لا تليق بجوهر الإنسان ، و لا تخدم مصلحته لا عن قريب و لا عن بعيد >> فالناس لا يعرفون ماذا ينتظرهم و لا يعرفون ما ينتظر أبناءهم ، ذلك لأن تكنولوجيا هذا النوع

كما يعتقد الكثيرون قد تصل إلى هندسة الإنسان نفسه، بمعنى أن تسيطر عليه وعلى سلوكه ، وتحوّله إلى أداة يمكن التحكم فيها واستخدامها >>¹³. ولا يستبعد أن تستخدم مثل هذه الأبحاث العلمية كأداة من طرف الدول العظمى في صراعها مع غيرها ، وتجعل منها سلاح تؤثر به هذه الدول على القرارات السياسية لغيرها من الدول ، ولا يخفى علينا أن الحرب البيولوجية اليوم أصبحت أكثر خطورة على الإنسان من الأسلحة النووية الفتاكة . وإذا لم تتول العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل هذه القضايا فإن دراسة السلوك البشري وحده لا يمكن أن تكون في مستوى طموح البشرية .

كما يطرح الاستنساخ البشري مشكل كبير جدا يتمثل في تشابه الهويات ، فنحن إذ نستنسخ فردا فإننا نخلق ذاتا قديمة في صورة جديدة ونصنع توأما متطابقا، لكن مع الاختلاف في السن ، و في حال ارتكاب جريمة معينة يحدث تطابق على مستوى البصمات ، و لا يمكن بذلك إلحاق الجريمة بمرتكبا¹⁴. فنحن نميّز بين البشر من خلال مظاهرهم الخارجية ، ومن خلال فحص بصماتهم ، و هذا التمييز يتعدّر علينا إذا وجدنا أنفسنا أمام جماعة من الأفراد المستنسخين على هيئة واحدة.

إن الثورات البيولوجية تسير بتقدم رهيب ، و قد لا تستوعب عقولنا التطور الذي ستشهده البيولوجيا في السنوات القادمة ، والإنسان ليس بحاجة إلى مثل هذه الثورات البيولوجية بقدر ما هو بحاجة إلى إعداد إنسان يتكّيف ويحمي نفسه من هذا التطور البيولوجي ، وهي مهمة يبدو أنه من الواجب أن تؤول إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية أو بالأحرى هي معركة يجب أن تخوضها العلوم الإنسانية ضد هذا التطور الذي يفتقد إلى الغايات النبيلة ، و إذا كان ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية الإنسان من حيث هو كائن عاطفي ، فإن الاستنساخ البشري قد يقضي على هذه العواطف ، لأن معنى الأمومة والأسرة و العائلة أصبح مهددا بالزوال ، و أصبح التكاثر البشري شبيه بالمؤسسات الصناعية .

2. التطور التكنولوجي وأزمة القيم :

أدى التطور التكنولوجي إلى تراجع مكانة الإنسان ، الأولى أمام الإنسان ذاته و الثانية أمام الآلة ، ذلك أن التطور التكنولوجي أدى إلى ظهور الفوارق الطبقة من خلال الامتيازات التي أصبح يتمتع بها أصحاب رؤوس الأموال ، دون أن تكون لهم مساهمة في خلق و إبداع هذه الامتيازات ، وأصبحت قيمة الإنسان و مكانته في ظل هيمنة الرأسمالية تقاس بمقدار قدرته على امتلاك تكنولوجيا المدنية ووسائل الحياة الراقية ، التي أصبحت حكرا على الطبقة المالكة ، و حتى العلماء أنفسهم و الذين كان لهم الفضل في إبداع التكنولوجيا المتطورة تراجعت مكانتهم أمام أصحاب رؤوس الأموال .

ولم يعد الإنسان يحترم أو يعامل كونه غاية في حد ذاته ، و إنما كونه غاية لغاية أخرى ، وهذا التصنيف الطبقي للإنسان خلق نوع من التوترات داخل المجتمع ، وأدى إلى صراع غير أخلاقي بين أفراد المجتمع و تسبب في ارتفاع نسبة الجريمة ، وعلى العلوم الإنسانية في دراستها لمثل هذه الظواهر عليها أن تغوص في العمق ، و تأخذ بعين الحسبان التحكم غير اللائق في التكنولوجيا المتطورة التي تسببت في انهيار مكانة بعض أفراد المجتمع ، و من هنا يكون لزاما على العلوم الإنسانية و الاجتماعية أن تحكم سيطرتها على هذا التطور و توجهه توجيها يسمح باحترام الإنسان باعتباره إنسان وكفى .

و نتيجة لسرعة التطور التكنولوجي ، أصبح الناس يتمايزون و يبتعدون أكثر فأكثر عن معالم المجتمع السليم ، و قسم المجتمع في ظل هيمنة الرأسمالية إلى سيد و عبد ، وهذا التصنيف لطالما رفضه الإنسان ، و ثارت ضده الفلسفات في العصور القديمة ، و أصبح التطور العلمي يجر الإنسان إلى ظواهر يرفضها ، و يظهر لنا أن كتاب هربرت ماركيز (Herbert.M) المعنون بالثورات العلمية الجديدة ، تناول جانبا هاما من أثر التكنولوجيا السلبي على تغيير نمط الحياة الاجتماعية¹⁵ .

إن الحياة الإنسانية و الاجتماعية تعرف انحرافا كبيرا بتفريغ الإنسان من محتواه العاطفي و الروحي ، و تعويضه بجوانب مادية ، حتى العلاقات الأسرية و الاجتماعية تأثرت بهذا الوضع ، وأكدت مجلة نيوزويك الأمريكية أن أغلب حالات

الطلاق في كل المجتمعات ناتجة عن انهيار العلاقات العاطفية بين أفراد الأسرة ، وطغيان وهيمنة العلاقات المادية على تشكيلة الأسرة >> وقد تنبه الشباب في المجتمعات الرأسمالية رغم ما وصلت إليه هذه المجتمعات من رفاهية لما ينطوي عليه التقدم التكنولوجي من أخطار على القيم الإنسانية >>¹⁶.

ويبدو أن تشبث الإنسان بالطابع المادي و النفعي قتل فيه حب الحياة في حد ذاتها و أخطأ الإنسان طريق السعادة بتفضيله للجانب المادي على حساب الجانب الروحي ، فإذا كانت السعادة مفهوم معنوي . فهل يمكن أن يكون الطريق إليها مادي ؟

هذا وأدى التطور العلمي إلى اضطراب الحس الجمالي و خروج الإنسان عن الحالة الطبيعية ، التي امتازت بصفاء النفس و خيرتها وتعاطفها مع الآخرين ، بل إن النفس في حالتها الطبيعية كانت تكابد أحزان الآخرين وكأن الأمر يعنينا ، وهذا ما أكده من قبل جون جاك روسو (J Rousseau) في العديد من كتاباته إذ يقول >> فمثلا أن انحلال الأخلاق يتبع بالضرورة الترف فقد جرب دوره فساد الذوق >>¹⁷. كما أن الإفرازات المادية للعلم فرقت بين أفراد المجتمع الواحد ، وقضت على الروابط المعنوية بينهم يقول روسو >> حاجات الأفراد المادية ساهمت في تباعد الأفراد بدلا من تقاربهم >>¹⁸.

هذا وأدى التطور التكنولوجي إلى تعويض الإنسان بالآلة و تفضيلها عليه ، ويظهر ذلك من خلال الاعتماد على إبداع الآلة الجمالي و تجاهل الكيان الإنساني >> كما أن إحلال الآلات محل العبيد يتطلب طاقة ، ولكن زيادة معدل استهلاك الطاقة باستمرار يهدد بتقويض الحياة المدنية التي كان من المفروض أن يدعمها >>¹⁹. والاستبدال المفرط للآلة كبديل عن الإنسان قد يؤدي إلى زوال وجودية الإنسان ، و علينا أن نميز بين استخدام التقنية في رفع مكانة الإنسان و ترقية حضارته ، و بين أن تكون التقنية بديلا عنه ، وقد بينّا من قبل أن استخدام التقنية وصل إلى حد تشكيل مؤسسات تقنية مختصة في الإنجاب ، و في هذا السياق بين هيدجر (Heidegger) أن التمييز بين التقنية و أهدافها شيء مطلوب

، ولـهذا من المهم أن نفكر أولاً في الطريق الذي نوظف به التقنية لأن التقنية ليست نفس الشيء في حد ذاتها مع جوهر التقنية²⁰.

وهذا معناه وجوب العودة إلى اللفظ في حد ذاته ومن الخطأ أن نعتبر التقنية أسلوب أو براعة فنية وإلا لكانت جميع أعمال الإنسان تقنية ، ومن هنا تنقلب علاقة المضايقة بين الإنسان والآلة ، وبدل أن يكون الإنسان سيدا عليها أصبح عبدا لها ، بل إن تمجيد المجتمعات الرأسمالية للآلة جعل من << الآلة هي التي تكون في نهاية المطاف في المرتبة العليا فتصبح وكأنها هي التي تملي أوامرها على الإنسان >>²¹. ولم تعد الآلة أكثر أهمية وشأنا من الإنسان بالوجه العام . بل أصبحت أكثر قيمة حتى من العلماء الذين ابتكروها .

إن تحولاً كهذا - في حياة البشرية - هو أهم للجدل الفلسفي من الجدل القائم حول علمية الظواهر الإنسانية والاجتماعية ودقة مناهجها ، وأولى أن تهتم به العلوم الإنسانية والاجتماعية أكثر من اهتمامها ببلوغ مناهجها الدقة المشهودة في العلوم الطبيعية والتي بيّنت الأبحاث العلمية المعاصرة أنها دقة مزعومة لا غير .

وفي ختام هذا التحليل نقول أن أغلب المشاكل التي يواجهها الإنسان ناتجة من عجز العلوم الإنسانية في التحكم في السلوك البشري من جهة ، وتوجيه التطور العلمي من جهة ثانية لسبب أو لآخر ، وهذا لصعوبة فهم السلوك البشري والسيطرة عليه ، وعلى العلوم الإنسانية والاجتماعية ألا تنهر بدقة العلوم الطبيعية ، بل عليها أن تحكم سيطرتها على تطور العلوم الطبيعية ، ولا يجب أن ننظر إلى مشكلة العلوم الإنسانية على أنها مشكلة منهج وإنما مشكلة توجّه جديد ، توجّه من دراسة السلوك البشري إلى حماية مكانة الإنسان ، والحفاظ على القيم في ظل الثورات التكنولوجية ، وكلها تولّت الفلسفة الخوض فيها بداية بفلسفة جون جاك روسو ووجودية هيدجر ، وفلسفة كانط وهابرماس وهربرت ماركيز و غيرهم من الفلاسفة . لكن من المفروض أن يكون هناك علم إنساني واجتماعي مختص في توجيه التقنية لصالح القيم الإنسانية والحياة الاجتماعية ، وهو الأفق الجديد الذي يجب أن تبرمج العلوم الإنسانية و

الاجتماعية نفسها عليه ، وتتقلد بذلك العلوم الإنسانية و الاجتماعية وظيفة جديدة هي إعداد إنسان قادر على التوافق وحماية قيمه في ظل التطور التقني الناجم عن تطور العلوم الطبيعية بمختلف فروعها.
الهوامش :

1. محمد عاطف غيث: علم الاجتماع دراسات تطبيقية. ص 151

- Harry Elmer Barnes: Social institutions. P 44²

" mean by social organization both the efforts of men to accomplish certain purposes - usually the satisfaction of vital human needs - and the social group and structures that result from such efforts "

3. محمد عاطف غيث: علم الاجتماع دراسة تطبيقية، ص 154

4. عبد الرحمان العيسوي : التنشئة الاجتماعية ، دت ، ص 67

5. محمد محمد امزيان : منبر البحث الاجتماعي بين الوضعية و المعيارية ، دت ، ص 66 ، 67

6. جون ركس: مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ترجمة محمد الجوهري و آخرون، د ط، منشئة المعارف الاسكندرية، دت .

، ص 296

7. جون ركس : مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية ، ص 296

8..H.I.Marrou: De la connaissance historique,Ed,du Seuil,Paris,1954,p54

9. جون ركس : مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية ، ص 296

10..H.I.Marrou: De la connaissance historique,Ed,du Seuil,Paris,1954,p54

11. عبد المحسن صالح : التنبؤ العلمي و مستقبل الإنسان ، ط 2 ، مطابع دار القبس الكويت ، 1984 ، ص 49

12. انظر ناهد البقصي : الهندسة الوراثية و الأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب العدد 174 ، يوليو 1993، الكويت ، ص 201

13. نفسه ، ص 211

14. سوزان الدريديج: إلى من ستؤول ملكية جسدك ، الثقافة العالمية العدد 102 (يوليو 2000)، الكويت ، ص 99

15. ناهد البقصي : الهندسة الوراثية و الأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة: ضرورة العلم ، ترجمة وائل أتاسي و بسام معصراني، سلسلة عالم المعرفة، العدد 174 ، ماي 1993 الكويت ، ص 206

16. عبد المحسن صالح : التنبؤ العلمي و مستقبل الإنسان ، ص 49

¹⁷. انظر: هريبت ماركيز: الثورات العلمية الجديدة، ترجمة عبد اللطيف شرارة، دار العودة، بيروت،

1971، ص 86.89

¹⁸. أميرة حلبي مطر : مقالات فلسفية حول الحضارة والقيم ، مكتبة مدبولي القاهرة ، 2003 ، ص 109

- Rousseau : Discours sur les science et les arts , librairie générale française,2004,

19P64

<< C'est ainsi que la dissolution des mœurs , suite nécessaire du luxe, entraîne à son tour la corruption du goût >>

20- Rousseau : Emile ou l'éducation , préface par : M J Labbe , librairie classique Eugène

Belin, Paris, 1883, p154

<< car , à ne considérer que le besoin physique , il doit certainement disperser les hommes au lieu de les

rapprocher>>

²¹. ماكس بيروتي: ضرورة العلم ، ترجمة وائل اتاسي وبسام معصراني، سلسلة عالم المعرفة، العدد

245، ماي 1999 الكويت ، ص 14